المحور الثاني: – التغير الاجتماعي في الفكر الإسلامي المعاصر.

المحاضرة السادسة: التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي

جاءت النظرة الإسلامية للتغير الاجتماعي كاملة منذ البداية، فإذا كان تالكوت بارسونز رأى في الفعل الاجتماعي النواة الأساسية لكل التفاعل والوجود الاجتماعي فإن الرؤية الإسلامية رأت في الفطرة الإنسانية الوحدة النواة للوجود الاجتماعي، ففيها شفرات الخير والشر كما فيها شفرات الاستقرار والتغير، فالفطرة هنا هي المرجعية والفعل الإرادي والعقل الإنساني هما أدوات الإنسان في تغيير الواقع الاجتماعي، وقد تحددت تحليلات واجتهادات بعض المفكرين الاجتماعيين المسلمين في العصر الحديث إلى أربعة تيارات هي:

– التيار التجديدي العقلي (الأفغاني، أرسلان، عبده، رشيد رضا، الكواكبي، الأمير عبد القادر، ابن باديس)

– تيار التغيير الثوري الحركي (حسن البنا، سيد قطب)

– التيار التحرري الإسلامي (مالك بن نبي، طه حسين، العقاد)

– التيار الشيعي الحديث (علي شريعاتي، مُحَمَّد حسين فضل الله)

التغير الاجتماعي عند ابن خلدون:

يعتقد ابن خلدون أن التغير سمة أساسية مستمرة، فالجماعة الإنسانية لا تبقى على حالها ولهذا وضع نموذجا لبداية الجماعة، وكيف تتحول تدريجيا إلى النموذج النهائي، يرى ابن خلدون أن البداوة تمثل نموذج الجماعة بداية، ثم تتحول تدريجيا لتصل إلى النموذج الحضري فيقول: (فالعمران وهو التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشيرة، واقتضاء الحاجات، لما في طباعهم من التعاون على المعاش، ومن هذا المعاش ما يكون بدويا، وهو الذي يكون في الضواحي وفي الجبال وفي الحلل المنتجعة من القفار وأطراف الرمال، ومنه ما يكون حضريا، وهو الذي في المصار والقرى والمدن، للاعتصام بها والتحصن بجدرانها) فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما...ومما يشهد لنا أن البدو أصل للحضر ومتقدم عليه...أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة، وأنها أصل لها...وقد تبين أن وجود البدو متقدم على وجود المدن والأمصار وأصل لها، وبالتالي يتحول النموذج البدوي تدريجيا بتبدل نحل العيش ليصل أو يندمج في النهاية في النموذج الحضري، ولأن مبدأ التطور يمثل قانون الطبيعة الذي ينطبق على كل أشكال الحياة، فانه يشمل التطور الاجتماعي فيقول ابن خلدون في هذا الصدد: (وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على مر الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الأفاق والأقطار والأزمنة والدول)، تتضمن محاولة ابن خلدون في تناوله لعملية التطور الاجتماعي جانبين، يشير الجانب الأول إلى أن التغير عملية طبيعية مستمرة، أما الجانب

الثاني فيشير إلى التباين في عملية التطور بين الجماعات لاختلاف ظروفها، يشمل هذا التباين الاختلاف في درجة سرعة التغير من جهة واتجاهه من جهة أخرى، للتغير لدى ابن خلدون أسباب خارجية وأخرى داخلية، تشمل الأسباب الخارجية علاقة الإنسان بالبيئة الطبيعية، مواردها جغرافيتها والمناخ وعلاقة الجماعة بغيرها من الجماعات سواء كان هذا بالاتصال أو التحالف أو الاتحاد، أو التبدل في الروابط الاجتماعية وضعف العصبية التي يمكن أن تعتبر نتيجة وسببا، هذه النظرية أساسية ويجب ربطها بجانبين من فكره: إقامة النماذج الاجتماعية (التنظيم الأسري، القبائل والأمم، التكنولوجيا، العلوم والأديان)، وهذه النظرية تتعلق بالنظام الاجتماعي في كليته، فالمدينة ليست مستقلة عن البادية أو العالم البدوي، فهي تستمد منه القوة العسكرية والسلطة بمعنى الوسائل التي تسمح لها بالحفاظ على النظام الداخلي والاحتماء من الهجمات والأخطار الخارجية، حماية الطرقات وتنظيم الشبكات التجارية ذات السلم الكبير، ابن خلدون يصف شكل الحركة الاجتماعية أي الانتقال من حالة قديمة إلى حالة جديدة، حيث يبين تجديد السكان الحضريين وتركيبة النظام، ومنه فإن علم العمران البشري والاجتماع الإنساني علم شامل يتضمن بحث التشكيلات الاجتماعية وما تشمله من نشاطات وتنظيمات اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية بالإضافة إلى تطور المجتمعات وأسباب تغيرها.

ويؤكدا أن الدعامة الأساسية للحكم تكمن في العصبية، وقد اهتم بالعصبية اهتماما بالغا إلى درجة أنه ربط كل الأحداث الهامة والتغيرات الجذرية التي تطرأ على العمران البدوي أو العمران الحضري بوجود أو فقدان العصبية، كما أنها في رأيه المحور الأساسي في حياة الدول والممالك، وأن الملك والدولة العامة إنما يحصلان بالقبيلة والعصبية، فالعصبية نزعة طبيعية في البشر، ذلك أنها تتولد من النسب وإذا كانت العصبية تقوم عند ابن خلدون على أساس صلة الرحم والنسب وأيضا على أساس الولاء والحلف، وكان الولاء والحلف يعبران عن شكل من أشكال التفاهم والاتفاق فانه يمكن القول بان العصبية تقوم أيضا على أساس من التعاقد، على الأقل في جزء من مكوناتها، و هو الولاء والحلف وفي هذا المعنى، يمكن التأكيد على أن مفهوم التعاقد عند ابن خلدون، يستند على العصبية في أساسين: في أساس العصبية باعتبارها تعبر عن شكل من أشكال التجمع المعبر بدوره عن ضرب من الاتفاق بين الأفراد، وفي أساس الولاء والحلف، باعتبارهما يعبران عن معنى من معاني الاتفاق أيضا، ويقرر ابن خلدون أن للدولة أعمارا طبيعية كما للأشخاص، وأن عمر الدولة لا يتعدى ثالثة أجيال حيث يقول: اعلم أن العمر الطبيعي للأشخاص...مائة وعشرون سنة،...وأما أعمار الدول ...، إلا أن الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثالثة أجيال. والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط، فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته. وفي نفس السياق يبين هذه الأجيال ويشرحها...إن عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثالثة أجيال: لان الجيل الأول لا يزال على خلق البداوة...والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة إلى الحضارة...وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة...ويفقدون حلاوة العز والعصبية...حيث يكون هرم الدولة وتخلفها، فهذه الأجيال هي:

1- جيل البداوة الذي يتميز بالخشونة والبسالة

2- جيل الحضارة الذي يتميز بالترف ومظاهر الدعة

3- الجيل الذي يبلغ فيه الترف حدا يصبح الناس عالة على الدولة ويفقدون عصبيتهم أي أن الجيل الثالث هو مؤشر لزوال الدولة وانقراضها.

التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي: يعد المفكر مالك بن نبي من أوائل الذين نادوا وعالجوا منهجية التغيير فقد ذهب ابن نبي إلى القول: بأن التغيير الاجتماعي هو الذي يستهدف إقامة الحضارة، وقيام أي حضارة لابد لها من توفر عناصر ثلاثة هي: الأشخاص، الأفكار، الأشياء، ثم أضاف عنصرا رابعا أطلق عليه شبكة العلاقات الاجتماعية ولهذا تأتي معالجة ابن نبي لإشكالية التغيير من خلال تركيزه على إعادة البناء الاجتماعي وهذه المعالجة تندرج تحت ما يسمى بعلم الاجتماع التطبيقي، والذي يهتم بالمثاليات الاجتماعية والاعتبارات الأخلاقية، ويهدف إلى تقديم أساليب يستخدمها الإنسان للنهوض بالظروف الاجتماعية اعتمادا على مبادئ علمية يسترشد بها، إن مشروع مالك الإصلاحي النهضوي يمكن النظر إليه من خلال مستويين هما:

المستوى الأول: تشخيص أمراض المجتمعات الإسلامية، وهو صارم في تشخيصه هذا، فهو يعين العلل ويدرس أوجهها المختلفة، ومكامنها في ضوء معطيات العلوم الاجتماعية الحديثة.

المستوى الثاني: يتناول فيه وسائل وآليات التحول التي تجعل الإسلام يقوم فيها بدور أساسي ومحوري.

تبنى مالك بن نبي نظرية الدورة الحضارية متأثراً برواد هذه النظرية، إذ استخدم فكرة (الدورة) التي استنبطها ابن خلدون وطورها هو فيما يخص الارتفاع بها إلى مستوى الحضارة بدلاً من الدولة واستخدمها في تأكيد الجانب الحركي في الحضارة.

مفاهيم نظرية التغيير الاجتماعي عند مالك:

1 - التغيير الاجتماعي: التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي يعد عملية بنائية تستهدف إقامة حضارة بواسطة نظام من العلاقات الاجتماعية. فالتغيير الاجتماعي بالضرورة من صنع الأشخاص، والأفكار، والأشياء جميعاً. ويفرق بن نبي بين التغيير الاجتماعي والتغير الاجتماعي. فيرى أن التغيير يتجلى من خلال تدخل الإنسان بالتخطيط، أما التغير فهو ظاهرة تلقائية وتشمل التغير نحو الأسوأ أو الأفضل.

2 - الحضارة: عرف الحضارة بعدة تعريفات بحسب الزاوية التي يتناول الحضارة منها فعرفها باعتبار جوهرها، وباعتبار مبدئها الذي تقوم على أساسه وباعتبار تركيبها وباعتبار وظيفتها، وباعتبار وحدة كيانها والصلة بين روحها ومنتوجاتها.

3 - المجتمع: يفرق مالك في استعماله لمصطلح المجتمع بين مجتمع ما قبل الحضارة، ومجتمع الحضارة، فالأول هو المجتمع البدائي أو الساكن الذي لا يمارس وظيفته التاريخية والثاني هو المجتمع التاريخي الذي دخل نطاق الحضارة.

4 - الدين: الفكرة الدينية عند مالك أساس كل مشروع تغييري وهو يهتم به في الغالب من حيث وظيفته الاجتماعية في صياغة الشخصية الحضارية وبناء العلاقات الاجتماعية فالدين القادر على التغيير هو الدين السماوي.

5 - الثقافة: ينظر مالك للثقافة من خلال علاقتها بالحضارة ووظيفتها في التغيير الاجتماعي وقد جاء مفهومه من خلال زاويتين. أ/الزاوية التاريخية. ب/ الزاوية التربوية.

6 - الايديولوجيا: يستخدم مالك مصطلح (المفهومية) للتعبير عن الأيدويولوجيا ويعني بها العنصر الذي يحقق جمع وتحريك الطاقات الاجتماعية.

أساس التغيير الاجتماعي: يرى مالك أن الفكرة الدينية هي الأساس والمحرك الفاعل لأي حركة تغييرية فالدين عند مالك عامل أساسي في إحداث التغيير الاجتماعي، ويرى أن آلية الحركة التاريخية إنما ترجع في حقيقتها إلى المجموع من العوامل النفسية التي تعتبر ناتجة عن بعض القوى الروحية وهذه القوى الروحية هي التي تجعل من النفس المحرك الجوهري للتاريخ. وكثيراً ما كان يتوقف عند لحظة دخول الدين إلى المجتمع ليوضح الأثر الذي تحدثه الفكرة الدينية في البناء الاجتماعي للمجتمع البدائي وكيف يتحول إلى مجتمع تاريخي.